

هانس هوفمان (1880-1966) المعلم الفريد

"في الطبيعة الضوء يخلق اللون، أما في اللوحة فاللون يخلق الضوء"

الرسام هانس هوفمان هو أحد أهم شخصيات الفن الأمريكي في فترة ما بعد الحرب، تميز بالخبرة في الرؤية النقدية، التي لم تكن لدى غيره من الفنانين عدا فان جوخ و بيكاسو، فقد استطاع ان يكون له مكان بين هؤلاء العمالقة... جاء في حياته ليتعجب العالم من طريقتة الخاصة في اشباع الكانفاس بالألوان، لكنه كان مؤثرا أيضا بدوره كمدرس. حتى صار العالم يحتفل به كرمزا من رموز التجريد في القرن العشرين، ودورة المحوري جنبا مع - جاكسون بولوك، وليم ديكونينج و أرشاييل جوركي- في نمو التعبيرية التجريدية على نطاق واسع. وتقول " كارين ويلكين- Karen Wilkin " في مقدمة كتابها عن " هانس هوفمان ": "كفنان ومنظر نشر هانس العديد من المواد وخاصة في معرضه بمتحف نابولي للفنون- بفلوريدا، كانت هذه المواد بمثابة خلاصة لمجموعة متكاملة من انجازاته وابداعاته تلخص ما توصل إليه. وكرسام تميز هوفمان بقدرته على خلق الدراما المسرحية المعبرة واثارة المكان بالذكريات من خلال التناقضات الشديدة للألوان بشكل غني على اسطح الكانفاس، وبالخلط في مفردات الاشكال التي تتراوح بين الاشكال الهندسية، والخطوط اليدوية. وفي مرحلة البدائية رسم حوالي أكثر من 60 لوحة... وكمدرس جلب معه المعرفة العملية لأمريكا كالمعاصرين الاوروبيين كباولو بيكاسو، وهنري ماتيس، الذي التقاهم عندما كان شابا خلال دراسته في باريس، في سنوات مبكرة من القرن العشرين. وبصفه منظر، طور هوفمان فلسفته الاصلية حول الفن وما هية العمل الفني، وماذا للفن ان يكون. والذي شكل أساس لتعاليمه، ومحاضراته ومقالاته. كان أحد أهم هذه البحوث والأسس حول " دور اللون في الرسم".



في احد اعمال الفنان بعنوان "الظهور- Apparition" تلك القطعة المليئة بالاشكال والتنغمات، ملأت الكانفاس نشاطا ونبضا بالحياة.. هكذا هي أعمال هوفمان تبوح بهجة وسرور في الالوان والملمس التركيبي.. فقد عرف هوفمان بما يمتلكه من اداء يحول المشاعر والاحاسيس وردود الأفعال الى لون وضوء على هيئة لوحة مسطحة ثنائية الأبعاد.. كان لدى هوفمان إيمانا بأن " الحدس الفني اساسه الثقة بالنفس"، ورأى أن "الطبيعة هي مصدر جميع

الإلهام". فبذلك استطاع هوفمان أن يجد مكانه بين المشاهير في صفحات كتاب " الفن في القرن العشرين- The 20th Century Art Book"... وكما كتب عنه أنه " حاول ان ينشط سطح اللوحة من خلال اكتشاف العلاقة بين الشكل، الفراغ، اللون والخط... فقد كان التوتر البصري بالنسبة له الاكثر أهمية في النظريات العليا المؤثرة في الفن.. حيث تعمق باتجاه العديد من الاتجاهات والاساليب المتغايرة التي تدمج التأثيرات المختلفة في التعبيرية والتكعيبية.



هانس هوفمان ابن ثيودور (Theodore) و فرانزيسكا (

Franziska Hofmann) ولد في ويستنبرج (Weissenburg) في 21 مارس 1880م، في السادسة من عمرة انتقلت عائلته الى ميونيخ (Munich) حيث عمل والده في الحكومة، وفي عمر مبكر برع هوفمان في اهتماماته بالرياضيات، العلوم، الموسيقى والفن. في السادسة عشر من عمره ساعده والده ليعمل كمساعد في الحكومة البافارية بوظيفة مساعد مدير الاشغال العامة، أثناء ذلك استطاع ان يطور نفسه في تقنية المعلومات والرياضيات، حتى اخترع وجرب آله حاسبة كهرومغناطيسية. وعلى الرغم من موهبته في العلم، إلا انه انجذب نحو الفنون، وبدأ يتدرب على الفن في الفترة التي توفي فيها والده بأواخر القرن الثامن عشر.

في عام 1898م ، درس هوفمان الفن في مدرسة مورتييز هيومان (Moritz Heymann) للفنون في ميونيخ، حيث تقدم في الانطباعية والتفقيطية، التي كانت آنذاك من أبرز الحركات الفنية إنتشارا، أشهر أعماله و أكثرها شعبية في تلك الفترة لوحة بورتريه رسمها عام 1902م، لزوجة المستقبل (میز)، والتي برع فيها بالنسبة لفنان صغير.

حينها تنبأ له العالم بمستقبل فني عظيم، وبالطبع تأثر هوفمان بـ (ويللي سكواترتز Willie Schwartz) أحد مدرسية، الذي شجعه واقترح عليه ان يسافر الى فرنسا لمواصلة دراسته ، ففي عام 1904م، وبدعم مالي من راعي الفن في برلين السيد فيليب فريدينبرج (Phillip Freudenberg) التحق هوفمان بمركزمختلف أنواع الفنون الحديثة في باريس.



انضمت اليه بعد ذلك ميز (Miz) وعاش الاثنان معا في باريس مدة عشرة سنوات، والتي كانت أحد أعظم الفترات في تاريخ الفن الغربي، حيث واصل بعد ذلك اكتشافاته في كل من اكاديمية (chanumiere de la Grand) و اكاديمية (colarossi)، وصادق خلالها هوفمان العديد من رواد الحركة المعاصرة، فأكثر التردد على مقهى (Café du Dome) حيث التقى معاصريه من كتاب وفنانين فرنسيين. حيث اطلع على فن كل من: ماتيس ، بيكاسو، وبراكوير، انما كان أكثر صداقة وتأثرا بـ روبرت ديلوني (Delaunay) وبطريقة تشديدة على اللون في الشكل، ثم شكلا حركة فنية صغيرة جدا والتي عرفت بأورفيزم (Orphism) او التكعيبيية. بعد ذلك عملا هو (و ميز) مع زوجة ديلوني (صونيا) في تصميم المجلس الاعلى للآثار.. ومما لا شك فيه ان هوفمان من خلال هذه التجارب بدأ يشكل لونا وشكلا خاصا به وبنظرياته في التطوير والتدريس.

بعد ذلك وتحديدا في الأعوام 1908 و 1909 م عرض هوفمان مجموعة اعمال جديدة في الفترة التي عقبته انفصال برلين الجديد. ترك فيما بعد هوفمان و ميز باريس وسافرا الى كورسيكا حيث يمكن ان يتعالج من السل. ومن عادا الى المانيا للاعتناء باخته المريضة، اثناء ذلك الوقت اندلعت الحرب في اوروبا. ونظرا لجنسيته الالمانية، لم يسمح له بالعودة الى باريس، وبسبب حالة رئته الصحية اعفي من الجيش. الامر الذي دعاه للبقاء في ميونيخ فتره اثناء الحرب العالمية الاولى. خلالها فتح هوفمان مدرسة للفنون الجميلة في ربيع عام 1915م ، حيث حصلت المدرسة على الاعتراف العالمي بعد انتهاء الحرب، وبدأت في ذلك الوقت الدروس والدورات الصيفية التي جذبت الكثير من الطلبة الأجانب. إلا أن (ورث ريدير- Worth Ryder) كان أكثر طلابه التصاقا به، والذي دعاه للتدريس في عام 1930م ، بالدورات الصيفية في جامعة كاليفورنيا، حيث بركلي كان رئيس قسم الفنون هناك. تلك كانت بداية لعلاقة مستمرة ذات معنى بين هوفمان وبركلي (U.C. Berkeley) ، وبعد ذلك بسنوات تبرع هوفمان بحوالي (45) لوحة للجامعة شرط ان تتعهد المدرسة ببناء متحف فني في الحرم الجامعي.

وفي ربيع 1931 م ، عاد هوفمان الى كاليفورنيا لتعليم الرسم في مدرسة للفنون الجميلة بلوس انجلوس. ثم استأنف بعد ذلك مناهج الدورات الصيفية في بيركلي. ساعد مناخ كاليفورنيا والمناظر الطبيعية هوفمان على مواصلة الرسم بقدر كبير، واكتشاف جمال الطبيعة الخاصة، فكان في تلك السنة معرضة العام الاول بالولايات المتحدة وتحديدا في قصر كاليفورنيا .

استقر بعدها هوفمان في عام 1932م بمدينة نيويورك، حيث اشرف على تعليم عصابة من طلبة الفن في منطقته شارع (75)، وفي العام التالي فتح هوفمان مدرسة " هانس هوفمان للفنون الجميلة" في طريق ماديسون (444) في مانهاتن، وهكذا على الرغم من أن المدرسة تنقلت عدة مرات إلا ان سمعتها استمرت في الانتشار حتى ذاع سيطها في كل انحاء امريكا الشمالية، وعرف في اوروبا بالمعلم الفريد، الذي نقل الى طلبة أمريكا ما تعلمه من

بيكاسو ، باراك، ماتيس و ديلاوني. واصبح معروفا بالمدرس الذي سمح لطلبته بأن يستكشفوا ويجرأوا في التجربة، بتقنياتهم الخاصة، وذلك بتشجيعهم على ان يتبعوا نظرتهم البصرية للعالم والطبيعة التي تحيط بهم.

في عام 1934م فتح هوفمان المدرسة الصيفية في (مدينة بروفينسي-Province Town)، حيث قسم وقته بين المدينة والساحل، خلالها استمر في الرسم والتمتع بالخلاء والطبيعة - بعد فترة طويلة من الانقطاع-. وفي عام 1939م انضمت اليه (ميز) في امريكا حيث أصبح هوفمان بعدها بسنتين مواطنا أمريكيا. فاستمر في التعليم بنيويورك وبروفينسي مدة السنوات الثمانية والعشرون القادمة.



خلال الثلاثينيات والاربعينيات والخمسينيات امتزج دور هوفمان بين كونه مدرسا وفنانا، علق على ذلك هوفمان بقوله: " ان اكون فنانا ومدرسا في آن واحد هما شيان متضاربان، عندما ارسم وألون ارتجل وانكر النظرية واتمرد عليها... فاعتمد فقط على ما هو في داخلي من شعور وعاطفة... أما التدريس فهو عكس ذلك تماما... بحيث يجب أن ابرز كل خط ، شكل، ولون واجبر على ان اشرح كل شيء غامض". كان هوفمان مدرسا كريما بالدرجة الاولى، وعلى الرغم من لغته الانجليزية الركيكة التي إمتزجت بالالمانية والفرنسية إلا أنه كان معبرا بشكل رائع في الفصل، وكان دائما يرسم لطلابه في احد زوايا لوحاتهم رسوما لتوضيح ما يود شرحه.

لم يكن هوفمان حتى وقت متأخرا قد عرف بسمعه كفنان كما عرف بسمعه كمدرس. في سن (64) نظم من قبل (Peggy Guggenheim) المعرض الاول لهوفمان في نيويورك ، والذي أعتبر معرض القرن، وفي عام 1949م عاد الى باريس لافتتاح معرضه في غاليري (مايجت- Maeght)، وفي اثناء زيارته تلك عاد الى استوديوهات معاصريه (بيكاسو، باراك، برانلس ، وميرو). وفي عام 1955م نظم في كلية (Bennington) معرضا يعرض له مجموعة أعمال، أما في عام 1957م كان له معرضا كبيرا يعرض أهم أعماله في متحف وايتني (Weightney) بنيويورك.

وكرسام لم يكن هوفمان حتى 1958م- وكان عمرة آنذاك 78 سنة- قادرا على ان يستقل كمدرس. فلم يستطع ان يتفرغ تماما لفنه، مع انه كان اكبر من جيل جاكسون بولوك كليفورد وليم ديكونيج الا انه استطاع ان يأخذ مكانه كعضو مؤثر ورئيسي في حركة الفن الامريكي بشكل دقيق آنذاك.

في عام 1960 م، كان هوفمان أحد أربعة فنانين مثلوا الولايات المتحدة في بينالي فينيسيا (Venice Biennale) وبعد ذلك بثلاثة اعوام عرضت مقتنيات اعماله القديمة في متحف الفن الحديث وسافر خلالها الى الولايات المتحدة ودوليا الى امريكا الجنوبية واوروبا.

وبعد ذلك بثلاثة سنوات ماتت (ميز) فبدأ هوفمان برسم لوحاتها من الذاكرة، واستمر في ذلك ليكون مجموعة أعمال رائعة لها، وفي 1965م تزوج هوفمان من امرأة ألمانية صغيرة (Renate) ورسم لها سلسلة مشرقة من التحف الخاصة بها، التي هي الآن ضمن مجموعة مقتنيات متحف متروبوليتان للفنون.

في 17 فبراير 1966 م - مات هوفمان عن عُمر يناهز (86) عاما. بعد ان ترك أحد لوحاته معلقة وقد شارفت على النهاية...و حتى يومنا هذا لازالت معارضه مستمرة...حيث أقتنيت أعماله في قبل عدة غاليريات ومتاحف من نيويورك وحتى نيوزيلندا....

وعن المشكلة اللونية وحقيقة الابداع في اللوحة النقية، كتب هانس هوفمان يقول:
" إن القيمة الحقيقية للوحة تتحدد بصورة كبيرة من خلال مفهومها الأساسي. في اللوحة يجب أن نفرق بين اللوحة النقية واللوحة الموسيقية. اللوحة النقية هي تماما عكس اللوحة الموسيقية. حيث أن وظيفة الألوان في اللوحة الموسيقية تكون مهمشة أي مجردة. فالألوان فيها غير ضرورية حيث خاصية الدرجات الموسيقية يمكن أن تكون من الاقوى إضاءة الى الأعرق ظلا، بحيث تنتج بواسطة الدرجات الابيض والاسود. أما في اللوحة النقية تلعب الألوان دورا في خدمة الغرض السيكولوجي التشكيلي، للوصول الى الهدف أو الغرض. فكلا من الشكل واللون يعملان معا في خطا موازيا للهدف المتزامن مع التركيب الذي يكون العمل. فاللون نفسه هو الضوء، وكما نعلم أنه في الطبيعة الضوء يخلق اللون، أما في اللوحة فاللون يخلق الضوء.

فجودة العمل الفني لا تقاس بقوة الإضاءة الخارجة من الألوان، إنما بجودة العلاقة التي تجمع كل هذه الألوان، وهذه العلاقة تكون منتجة من عقل واع حساس، ذات ترتيب جيد ودراسة عالية في تأليف الشكل المتكامل للعمل نفسه. فعندما نتعامل مع العمل المؤلف من تكرر شكلي يجب أن نميز دائما بين الاحساس الطبيعي المادي للشكل المتكرر والاحساس الجمالي للشكل.

مشكلة تقنية اللون أساسا هي مشكلة مزدوجة: هي مسألة الأشكال في سطح اللوحة وعلاقة هذه التكوينات، ومسألة تطوير اللون والتي تخضع لقوانين يتم الخضوع لها، كلاهما تطوير الشكل واللون، في علاقة تبادلية تعويضية، علاقة هارمونية متناسقة تشبه الى حد كبير عملية العزف المصاحب في الموسيقى. على أية حال سحر اللوحة، لا يمكن ان يكون متكاملًا ، لانه الانسجام بين العقل والقلب في قدرة المشاعر على ان تسع وتحوي الاشياء التي تتحرك... لذا كانت اللوحة دائما هي تكييف حدسي نظري. وهي تشبه عملية البناء (الأبيض) حيث أن اللون يحول من القوة الحيوية ليصبح مصدرا حقيقيا للحياة التصويرية. فالحياة التصويرية هي ليست تقليدا للحياة، بل هي بالعكس، خلق حياة مستندة على الحياة الحقيقية بمختلف وسائل التعبير.

ان الاستمرارية في تطوير اللون هي الوصول الى النجاح المتعاقب بتطوير درجات اللون، والتي تقارن بتناسب النغمة في الموسيقى . فكم من الممكن أن تلعب دورا رئيسيا او ثانويا، فلكل درجة لونية ايقاعا خاصا بها.. فالتطوير الايقاعي لدرجات اللون الاحمر تختلف تماما عن درجات الازرق او الاصفر... إلخ، فدرجات تطور اللون تقاس من خلال انتشارها على كامل سطح اللوحة وكيفية توجيه هذا الانتشار بما يتعلق وتوازن سطح اللوحة. فالتطور اللوني والشكلي للعمل الفني يعملان معا بشكل آني.

في اللوحة الموسيقية تكون العلاقة بين التجاورات اللونية متصله من خلال الانتقال من الظل والنور، بينما في اللوحة النقية الدرجات الايقاعية في درجات اللون تجلب اللون الى علاقة مفتوحة تعتمد على تطور اللون مع التكوينات الشكلية اللا محدودة. فهنا الألوان تجتمع في علاقة تجاورية ذات تباين ذاتي.

إن اي لوحة يمكن أن يكون لها تأثير فوري، لكن يظهر بشكل متسلسل، فعندما تكون عملية التطوير غير متكاملة تجعل من التأليف للعمل عملية مخفية. إن النظر الى اللوحة هو فعل تلقائي، يكشف بالحال الجودة او اللاجودة للعمل الفني، لكن ما هي الجودة؟؟ الجودة هي الجوهر الناتج من تأسيس العلاقات الحسية المقنعة، ويمكن ان تكون فقط رد فعل تعاطفي اي الشعور بجمال طبيعة الأشياء.

في اللون تأسيس العلاقات بين الالوان مستند على امكانية تعدد ظلال الألوان ووثامها في منطقه ما، بحيث تنتشر وتسيطر على سطح اللوحة بأكملها. اللون بالطبع ليس في داخله معنى للإبداع، نحن من نوجهه ونحوه الى قوة ابداعية بأن نربط العلاقات الداخلية بين الالوان بعضها بعض في علاقة حيوية حقيقية متماثلة جماليا.

أخيرا يقول هانس هوفمان: " إن الحياة التصويرية هي خلق حقيقة، وبدونها يكون الاتصال التصويري الذي ينادي الاحاسيس والعقول غير موجود... واللون في الطبيعة كما هو في اللوحة، وهو المتكفل بإعطاء أعلى متعة جمالية".

" العاطفة الصادرة كليا من اللون ترتبط بالسمة الشكلية للعمل الفني، تشع الصحوه في مشاعرنا المتعلقة بالتعبير، عندها نحاول ادراك او تحليل تجاربنا على نحو ابداعي... وبالمثل هذا الادراك يترك المجال مفتوحا للخيال وللقابلية الانتقالية لدى الفنان"

"أخيرا..... الحياة والطبيعة محفز ثابت للعقل المبدع حتى لاينضب".